

أهمية اللغة العربية وكيف يُمكن تعلُّمها؟/ج2



الفصل الأوّل

أهمية اللغة العربية

أهمية اللغة العربية في المصّادر العربيّة 1 - قال عمر: «تعلّموا الذّحو كما تُعلّمون السُّنن والفرائض». وفي قول آخر عن عمر أنه قال: «تعلّموا العربية فإنها من دينكم، وتعلّموا الفرائض فإنها من دينكم». 2- قول الثّعالبي في كتابه فقه اللغة وسرّها العربيّة: «إنّ مَن أَحَبَّ اللَّهَ أَحَبَّ رَسُولَهُ، وَمَن أَحَبَّ اللَّهَ أَحَبَّ الْعَرَبَ، وَمَن أَحَبَّ الْعَرَبَ أَحَبَّ اللّٰهَ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي بَهَا نَزَلَ أَفْضَلُ الْكِتَابِ عَلَى أَفْضَلِ الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ، وَمَن أَحَبَّ الْعَرَبِيَّةَ عُنِيَ بِهَا وَثَابَرَ عَلَيْهَا، وَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهَا». 3 - قول ابن تيميّة: «إنّ اللغة العربيّة من الدِّين، ومعرفةُها فرضٌ وواجبٌ، فإنّ فهم الكتاب والسُّنة فرضٌ، ولا يُفهمُ إلّا باللّغة العربيّة، وما لا ينضمُّ إلّا الواجبُ إلّا به فهو واجبٌ». وقوله أيضًا: «وليس أثر اعتياد اللّغة الفصحى مقصورًا على اللسان، بل يتعمق حتى يؤثّر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًّا بيّـدًا، ويؤثّر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق». 4- قال ابن تيميّة: «وما زال السلف يكرهون تغييرَ شعائر العرب حتى في المعاملات، وهو التكلّم بغير

العربية إلا حاجة ، كما نصَّ على ذلك مالك والشافعي وأحمد، بل قال مالك: « مَنْ تكلَّم في مسجدنا بغير العربية أُخرجَ منه » مع أن سائر الألسن يجوز النطق بها لأصحابها، ولكن سوغوها للحاجة، وكرهوها لغير الحاجة، ولحفظ شعائر الإسلام». وقال أيضًا: «وكان السلف يؤدِّبون أولادهم على اللحن، فنحن مأمورون أمرَ إيجابٍ أو أمرَ استحبابٍ أن نحفظ القانون العربي، ونُصلح الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة، والافتداء بالعرب في خطابها، فلو تُرك الناس على لحنهم كان نقصًا وغيبًا». 5- قول الفارابي يمدح العربية ويقول: «بأنها من كلام أهل الجنة، وهو المنزَّه بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلّى من كل خسيصة، ولسان العرب أوسط الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا». 6- قال ابن قيم الجوزية: «وإنَّما يعرفُ فضلَ القرآن مَنْ عرِفَ كلامَ العرب، فعرف علم اللّغة وعلم العربية، وعلم البيان، ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها في مواطن افتخارها، ورسائلها...». 7- ونقل عن الإمام أحمد كراهة الرّطانة، وتسمية الشهور بالأسماء الأعجميّة، والوجهُ عند الإمام أحمد في ذلك «كراهةُ أن يتعوّد الرجل النطق بغير العربية». 8- قال مصطفى صادق الرافعي: «ما ذلّت لغةُ شعبٍ إلا ذلّ، ولا انحطّت إلا كان أمره في ذهابٍ وإدبارٍ، ومن هذا يفرض الأجنبيُّ المستعمرُ لغته فرضًا على الأمّة المستعمرة، ويركبهم بها، ويُسعرهم عظمتها فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثةً في عملٍ واحدٍ: أمّا الأول فحبّس لغتهم في لغته سجنًا مؤبّدًا، وأمّا الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا، وأمّا الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبيّع». 9- ذكر الشافعي أنَّ على الخاصّة التي تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون إليه لدينهم الاجتهاد في تعلّم لسان العرب ولغاتها، التي بها تمام التوصل إلى معرفة ما في الكتاب والسُّنن والآثار وأقوال المفسّرين من الصحابة والتابعين، من الألفاظ الغريبة، والمخاطبات العربية، فإنَّ من جهل سعة لسان العرب وكثرة ألفاظها، وافتنانها في مذاهبها جهلٌ جُمِّلَ علم الكتاب، ومن علمها، ووقف على مذاهبها، وفهم ما تأوَّله أهل التفسير فيها، زالت عنه شبه الدّاخل على من جهل لسانها من ذوي الأهواء والبدع».

أهمية اللّغة العربية في مصادر المستشرقين: من أجل معرفة فضل لغة القرآن يجب علينا من قراءة بعض الأقوال الغير العربية كذلك. 1- قوال المستشرق الفرنسي رينان: «من أغرب المُدْهَشَات أن تنبت تلك اللّغة القوميّة وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمّةٍ من الرُّحّل، تلك اللّغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقّة معانيها وحسن نظام مبانيها، ولم يُعرف لها في كلّ أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة، ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُبارى ولا نعرف شبيهًا بهذه اللّغة التي ظهرت للباحثين كاملةً من غير تدريج وبقيت حافطةً لكيانها من كلّ شائبة». 2- قول المستشرق الألمانية الدّكتورة في الفلسفة أنا ماري شيمل، والتي ترجمت القرآن الكريم إلى الألمانية: «واللّغة العربية لغةٌ موسيقيّةٌ للغاية، ولا أستطيع أن أقول إلا أنها لا بُدَّ أن

تكون لغةُ الجذّةِ». 3- قال المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس: «إنَّ في الإسلام سنداً هاماً للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد. ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثاً، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافاً من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوةً ونماءً. والعنصر الثاني الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تُبارى، فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام». 4- قال المستشرق الألماني يوهان فك: «إنَّ العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساساً لهذه الحقيقة الثابتة، وهي أنها قد قامت في جميع البلدان العربية والإسلامية رمزاً لغويّاً لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية، لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية». 5- قال جوستاف جرونبيوم: «عندما أوحى الرسول إلى رسوله محمد أنزلها «قرآنًا عربيّاً» وإني يقول لنبيّه: «فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدا»، وما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها، فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الإنهاء، وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله في سائر اللغات من قوة وبيان، أما السعة فالأمر فيها واضح، ومن يتتبع جميع اللغات لا يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية، ويضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات. وتزيّن الدقة ووجازة التعبير لغة العرب، وتمتاز العربية بما ليس له ضرب من اليسر في استعمال المجاز، وإنَّ ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيراً فوق كل لغة بشرية أخرى، وللغة خصائص جمّة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف له نظائر في أيّ لغة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها، يبيّن ذلك أنَّ الصورة العربية لأيّ مثل أجنبيّ أقصر في جميع الحالات، وقد قال الخفاجي عن أبي داود المطران - وهو عارف باللغتين العربية والسريانية - أنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السريانية قبّحت وخسّت، وإذا نُقل الكلام المختار من السريانية إلى العربي ازداد طلاوةً وحسنًا، وإنَّ الفارابي على حقّ حين يبرّر مدحه العربية بأنها من كلام أهل الجذّة، وهو المنزّه بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلّى من كل خسيصة، ولسان العرب أوسط الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً». 6- قال المستشرق الألماني أوجست فيشر: «وإذا استثنينا الصين فلا يوجد شعبٌ آخرٌ يحقّ له الفخارُ بوفرة كتب علوم لغته، وبشعوره المبكر بحاجته إلى تنسيق مفرداتها، بحسب أصول وقواعد غير العرب». 7- قال هايوود: «إن العرب في مجال المعجم يحتلون مكان المركز، سواءً في الزمان أو المكان، بالنسبة للعالم القديم أو الحديث»

، وبالنسبة للشرق أو الغرب». 8- قال المستشرق ألفريد غيوم عن العربية: «ويسهل على المرء أن يدرك مدى استيعاب اللغة العربية واتساعها للتعبير عن جميع المصطلحات العلمية للعالم القديم بكل يسر وسهولة، بوجود التعدد في تغيير دلالة استعمال الفعل والاسم...»، ويضرب لذلك مثلاً واضحاً يشرح به وجهة نظره حيث يقول: «إن الجذر الثلاثي باشتقاقه البالغة الألف عَدَّ، ا، وكلُّ منها متَّسق اتساقاً صوتياً مع شبيهه، مشكلاً من أيّ جذر آخر، يصدر إيقاعاً طبيعياً لا سبيل إلى أن تخطئه الأذن، فنحن (الإنكليز) عندما ننطق بفكرة مجردة لا نفكر بالمعنى الأصلي للكلمة التي استخدمناها، فكلمة (Association) مثلاً تبدو منقطعة الصلة بـ (Socins) وهي الأصل، ولا بلفظة (Ad)، ومن اجتماعهما تتألف لفظة (Association) كما هو واضح وتختفي الدالّة مدغمة لسهولة النطق، ولكن أصل الكلمة بالعربية لا يمكن أن يَسْتَسِرَّ وَيَسْتَدِقَّ على المرء عند تجريد الكلمة المزيّدة حتى يضيع تماماً، فوجود الأصل يظلّ بيّناً محسوساً على الدوام، وما يعدّ في الإنكليزية محسّناتٍ بديعيةٍ لا طائل تحتها، هو بلاغةٌ غريزيةٌ عند العربي». 9- قال المستشرق الألماني نولدكه عن العربية وفضلها وقيمتها: «إن اللغة العربية لم تَصِرْ حَقّاً عالميةً إلا بسبب القرآن والإسلام، وقد وضع أمامنا علماءُ اللغة العرب باجتهدهم أبنيةَ اللغة الكلاسيكية، وكذلك مفرداتها في حالة كمالٍ تامٍّ، وأنه لا بدّ أن يزداد تعجب المرء من وفرة مفردات اللغة العربية، عندما يعرف أنّ علاقات المعيشة لدى العرب بسيطةٌ جدّاً، ولكنهم في داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق في المعنى بكلمةٍ خاصّةٍ، والعربية الكلاسيكية ليست غنيّةً فقط بالمفردات ولكنها غنيّةٌ أيضاً بالصيغ النحوية، وتهتمّ العربية بربط الجمل ببعضها... وهكذا أصبحت اللغة (البديّة) لغةً للدين والمنتديات وشؤون الحياة الرفيعة، وفي شوارع المدينة، ثم أصبحت لغةَ المعاملات والعلوم، وإن كلّ مؤمنٍ غالباً جدّاً ما يتلو يومياً في الصلاة بعض أجزاء من القرآن، ومعظم المسلمين يفهمون بالطبع بعض ما يتلون أو يسمعون، وهكذا كان لا بُدّ أن يكون لهذا الكتاب من التأثير على لغة المنطقة المتّسعة ما لم يكن لأيّ كتابٍ سواه في العالم، وكذلك يقابل لغة الدين ولغة العلماء والرجل العادي بكثرة، ويؤدّي إلى تغيير كثيرٍ من الكلمات والتعابير في اللغة الشعبية إلى الصحة». 10- قال المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون: «استطاعت العربية أن تبرز طاقة الساميين في معالجة التعبير عن أدق خلجات الفكر سواءً كان ذلك في الاكتشافات العلمية والحسابية أو وصف المشاهدات أو خيالات النفس وأسرارها. واللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، والعربية من أنقى اللغات، فقد تفرّدت بتفرّدها في طرق التعبير العلمي والفني والصوفي، إنّ التعبير العلمي الذي كان مستعملاً في القرون الوسطى لم يتناوله القدم ولكنه وقف أمام تقدّم القوى المادية فلم يتطوّر. أما الألفاظ المعبّرة عن المعاني الجدلية والنفسانية والصوفية فإنها لم تحتفظ بقيمتها فحسب بل تستطيع أن تؤثر في الفكر الغربي وتنشّطه. ثمّ ذلك الإيجاز الذي تتسم به اللغة العربية والذي لا شبيه له في سائر لغات العالم والذي يُعدّ معجزةً لغويةً كما قال البيروني». 11- قالت المستشرقة الألمانية زيغريد

هونكة: «كيف يستطيع الإنسان أن يُقاوم جمالَ هذه اللّغة ومنطقَها السليم وسحرَها الفريد؟ فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صرعى سحر تلك اللّغة، فلقد اندفع الناس الذين بقوا على دينهم في هذا التيار يتكلمون اللّغة العربيّة بشغفٍ، حتى إنّ اللّغة القبطية مثلاً ماتت تماماً، بل إنّ اللّغة الآرامية لغة المسيح قد تخلّت إلى الأبد عن مركزها لتحتلّ مكانها لغة محمد». 12- قال المستشرق الألماني كارل بروكلمان: «بلغت العربيّة بفضل القرآن من الاتساع مدىّ لا تكاد تعرفه أيّ لغةٍ أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأنّ العربيّة وحدها اللسانُ الذي أُحلّ لهم أن يستعملوه في صلاتهم...». وقال د. جورج سارتون: «وهبَ القرآنُ اللّغة العربيّة مرونةً جعلتها قادرةً على أن تدوّن الوحي أحسن تدوين... بجميع دقائق معانيه ولغاته، وأن تعبّر عنه بعباراتٍ عليها طلاوة وفيها متانة». 13- أكّد المستشرق ريتز أستاذ اللغات الشرقية بجامعة إستنبول: «إن اللّغة العربيّة أسهل لغات العالم وأوضحها، فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقةٍ جديدةٍ لتسهيل السهل وتوضيح الواضح. إن الطلبة قبل الانقلاب الأخير في تركيا كانوا يكتبون ما أمليه عليهم من المحاضرات بالحروف العربيّة وبالسّعة التي اعتادوا عليها - لأن الكتابة العربيّة مختزلةٌ من نفسها - أما اليوم فإن الطلبة يكتبون ما أمليه عليهم بالحروف اللاتينية، ولذلك لا يفتأون يسألون أن أعيد عليهم العبارات مراراً، وهم معذورون في ذلك لأنّ الكتابة الإفرنجية معقّدةٌ والكتابة العربيّة واضحةٌ كلّ الوضوح، فإذا ما فتحت أيّ خطابٍ فلن تجد صعوبةً في قراءةٍ أردأ خطٍ به، وهذه هي طبيعة الكتابة العربيّة التي تتسم بالسهولة والوضوح». 14- العالم اللغوي أفرام تشومسكي Chomsky Noam Afram ابن معلم اللّغة العبرية وأحد خريجي جامعة بنسلفانيا، وهو أستاذٌ في معهد ماساشوست ومفكرٌ يهوديٌ كبير، فإنه أقرّ بالحق العربي وبمكانة العربيّة، وقد تزعم الدراسات اللغوية المعاصرة وكوّن نظريةً جديدةً قلبت الفكر اللغوي رأساً على عقب، أصدر كتابه الأول في التراكيب النحوية Structure Syntactic في سنة 1957م نقد فيه مدرسة علم اللّغة الوصفي Descriptive هما الجملة في بنيتين بين زُمنيّ وقد، قريبٌ عهدٌ حتى الغرب في سائدة كانت التي Linguistics البنية العميقة والتركيب السطحي، وأوضح أن البنية الأولى هي أساس الثانية. نوّه تشومسكي في معرض ردّه على استفسارٍ وُجّه إليه في سنة 1989م بأن تأثيرات النحو العربي كبيرةٌ على نظريته في دراسة اللّغة، وأنه قرأ كتاب سيبويه كمرجعٍ له. 15- أشاد ماريو بِلّ مؤلف كتاب «قصة اللغات The Story of Language»، الوسطى العصور حضارات في العالمية لغةً الهيّة العربيّة بأن «p155,277 Littre قاموس Littre قوائم بما رافداً عظيمًا للإنكليزية في نهضتها وكثيرٍ من الأوربيّات، وقد أورد قاموس Littre قوائم بما اقتبسته هذه اللغات من مفرداتٍ عربيّةٍ، وكانت أولها الإسبانية ثم الفرنسية والإيطالية واليونانية والمجرية وكذلك الأرمنية والروسية وغيرها، ومجموعها 27 لغة، وتقدر المفردات بالآلاف. 16- قال المستشرق الألماني فرنباغ: «ليست لغة العرب أغنى لغات العالم فحسب، بل إن الذين نبغوا في التّأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العدّ، وإن اختلافنا عنهم في الزمان والسجيا والأخلاق أقام بيننا نحن

الغرباء عن العربية وبين ما ألفوه حجابًا لا يتبيّن ما وراءه إلاّ بصعوبة». 17- قال الأستاذ ميليه: إنّ اللّغة العربيّة لم تتراجع عن أرض دخلتها لتأثيرها الناشئ من كونها لغة دين ولغة مدنية، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها المبشرون، ولمكانة الحضارة التي جاءت بها الشعوب النصرانية لم يخرج أحد من الإسلام إلى النصرانية، ولم تبق لغة أوربية واحدة لم يصلها شيء من اللسان العربي المبين، حتى اللّغة اللاتينية الأم الكبرى، فقد صارت وعاءً لنقل المفردات العربيّة إلى بناتها. 18- قال الفرنسي جاك بيرك: إنّ أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللّغة العربيّة، بل اللّغة العربيّة الكلاسيكية الفصحى بالذات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا، إنّ الكلاسيكية العربيّة هي التي بلورت الأصالة الجزائرية، وقد كانت هذه الكلاسيكية العربيّة عاملاً قوياً في بقاء الشعوب العربيّة.